المساجد التاريخية الكبرى

إعداد

دكتور يوسف فرحات

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس لبنان : ص.ب ٥٢ ـ تلكس ISSAM ٤١٩٧ LE
هاتف : ٤٣١٩٥٢ (٠٦) ـ ٤٤١٢٨٢ (٠٦) - ٦٠٢٠٦٤ (٠٩)

المعالم التاريخية الكبرى

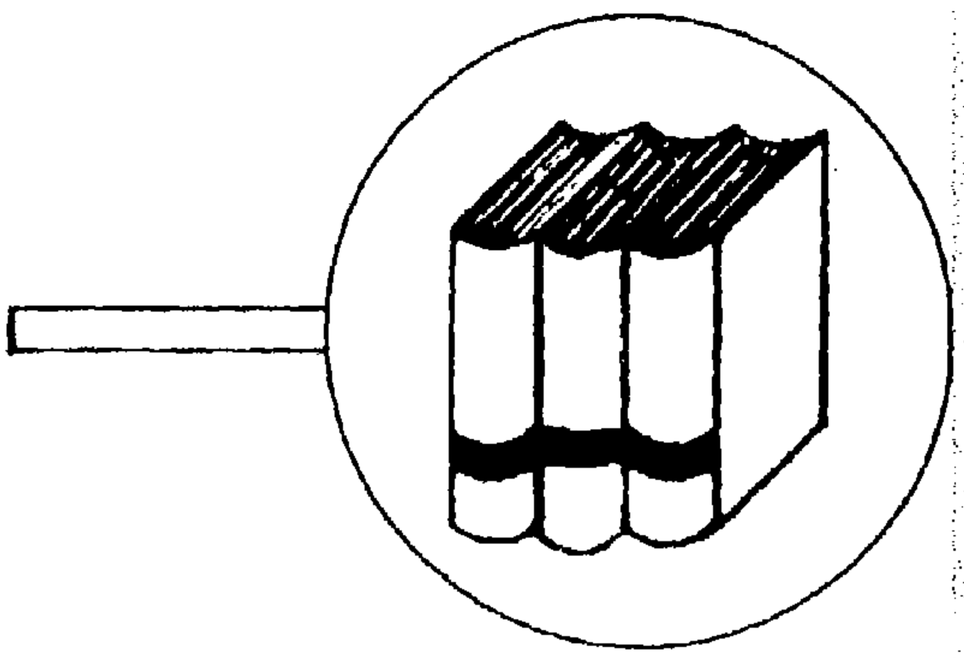

دار الشمال
للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس لبنان
ص.ب ٥٧ - هاتف: ٠٦/٤٣١٩٥٢ - ٠٦/٦٠٢٠٦٤
تلكس LE ٤١٩٧٨ Issam

○

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة
١٩٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ
فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ❀

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

١٨ التوبة

مقدّمة

يتناول هذا الكتاب المساجد المشهورة في عالم الإسلام وخصائصها المعمارية. وإذا كان دخول المسجد هو في الأساس من أجل الصلاة والتعبّد فإنّ دخولنا مساجد العالم، في هذا الكتاب، هو من أجل التعرّف إلى المراحل الفنيّة المتنوعة التي مرّ بها الفنّ المعماري الاسلامي، وتبيان معالم الجمال في كل منها، فالإحساس بملامح الجمال فيه تسبيح وتكبير.

كان المسجد وما يزال الإشارة المادية الأولى إلى وجود جماعة المسلمين، فحيث المسجد يكون تلاقي المؤمنين بالإسلام، إليه يلوذون في أوقات الشدّة وفي أرجائه يعيشون حرارة الإيمان. إنّه ركيزة الجماعة التي بواسطتها يترابط الأفراد بعضهم ببعض.

والمساجد الأولى كانت أبنية قليلة الارتفاع، بسيطة، واضحة المعالم، بعيدة عن التعقيدات المعارية، وذلك انسجامًا مع وضوح الدين وابتعاده عن الغموض. وقد حرص النبي ﷺ على أنْ يكون المسجد عاديًا في بنائه، فالمسجد الأوّل الذي بُني على عهد الرسول ﷺ كان من اللبْن، وسقفه من الجريد، وأعمدته من خشب النخل، كما خلا من الزخارف والزيادات التي عرفتها المساجد فيما بعد. وقد بدأ التطور في عهد عبد الملك بن مروان الذي تأثر بكنائس النصارى، ولا سيما كنيسة النصارى في القدس وقبّتها الشاهقة، فعمل على مضاهاة تلك الكنيسة ببناء قبّة الصخرة المشهورة.

وبما أنَّ الإسلام ذو طابع روحي إنساني يقوم على الإيمان بوحدانيّة الله جُلّ جلاله، فإنّ المسجد الذي هو في الأساس بيت الصلاة يُعتبر في الوقت نفسه بيت الجماعة وملكهم. فقد جُعل مركزًا للتعليم، بدءًا بالقراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وانتهاءً بتفاصيل

علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب. ومعنى هذا أن المسجد كان المدرسة والجامعة معًا. وقد شهدت المساجد في العصور السابقة حلقات العلم المتنوعة في الأروقة والزوايا، وكل حلقة تهتم بحقل من حقول المعرفة.

ويذكر المؤرخون أن الخلفاء والقضاة كانوا يخصصون أيامًا معينّة للجلوس في ناحية أو باب من المسجد للنظر في أحوال الناس، فيفصلون بين المتخاصمين وينصفون المظلومين ويعاقبون المعتدين، على ضوء ما تقدّمه الشريعة من أحكام وقوانين. كما كان المسجد، وما يزال في بعض المجتمعات، ملتقى أهل الرأي وأصحاب القرار في القضايا الاجتماعية والسياسية والحربية. وكثيرة هي أخبار الرواة حول إعلان حرب أو إقرار صلح في اجتماع داخل المسجد الجامع. وينبغي ألا ننسى أخيرًا أنّ المسجد كان، ويبقى، ملجأ الغرباء الوافدين والفقراء المعوزين الذين كانوا يقصدون المسجد قبل أي مكان آخر، وفيه كانوا يجدون من يؤمّن لهم الكسوة والطعام والراحة.

ويتكون المسجد أساسًا من أقسام نتوقف عند المهم منها:

١ ـ الصحن، الصحن لغةً هو ساحة الدار، وهو للمسجد رحبته، وهو القسم غير المسقوف من المسجد، ويعتبر امتدادًا لبيت الصلاة يستوعب المصلّين الذين يزدحم بهم بيت الصلاة، لا سيما في أيام الجمع. والصحن قديم العهد في المساجد، إذ اهتم أصحاب المساجد الأولى بعزل المصلين عن الجلبة الخارجية التي قد تصرف الناس عن التفرّغ للعبادة والإصغاء إلى ما يتلى من كلام الله أو عظة الخطيب، فلم يكن في أي مسجد من المساجد الأولى نوافذ أو شرفات. ثم إن النبي ﷺ جعل لمسجده في المدينة المنوّرة ظلّتين: ظلّة القبلة (الجنوب) وظلة الشام (الشمال)، وجعل بين هاتين الظلتين رحبة تفصل بينهما. وهذه الرحبة هي التي تحولت في المسجد الى ما يعرف باسم «الصحن».

وإذا كانت الظلّة يراد بها وقاية المصلّين من حرارة الشمس أو برودة الجو أو نزول المطر، فإنَّ لصحن المسجد مقابل ذلك غاية مهمة، إذ منه يدخل النور إلى بيت الصلاة الذي لا نوافذ له. وفيما بعد أصبح الصحن المكان المفضل لإقامة أحواض الوضوء والمرافق الصحية، وهذه الأحواض تكون في وسط الصحن أو في إحدى زواياه.

وبقاء الصحن مكشوفًا حمل المسؤولين، في بعض الأماكن، على غرس الأشجار في

أنحائه، وذلك اتقاء لحرارة الشمس. وتُحدثنا المصادر التاريخية عن بعض المساجد التي اشتهرت بأسماء الأشجار التي زُرعت في صحونها كمسجد الياسمين في طبرية بفلسطين. ولم يقتصر غرس الأشجار على نوع دون آخر وإنما انصب الاهتمام على النخيل والنارنج أكثر من سواهما.

وأقيمت في بعض الصحون قباب فوق أحواض الوضوء. وقبل أن تدخل الوسائل العصرية لجر المياه كان في كل مسجد حوض واسع ومن فوقه قبّة ترفع على أعمدة، وتنقش على أطراف القباب، أحيانًا، أبيات من الشعر التأريخي تتضمن أسماء الذين بنوا الأحواض وتاريخ البناء. وقد عمد بعض الحكام الى بناء القباب في صحون المساجد لجعلها مستودعًا للمدّخرات الثمينة والوثائق الرسمية، كما اتخذ بعضهم القباب خزائن لحفظ المخطوطات النادرة.

كما استعمل صحن الجامع قاعة مكشوفة لإلقاء الدروس، وما يزال صحن الجامع الأزهر بمصر مكانًا لتحصيل العلم. كما تقام في بعض أنحاء الصحن حلقات الفكر ومجالس الأدب الراقي.

٢ ـ بيت الصلاة: هو القسم المسقوف من المسجد ويقع ناحية القبلة، وقد وجد بيت الصلاة مع مسجد الرسول ﷺ في المدينة. وفي بيت الصلاة القبلة والمحراب والمنبر والمقاصير، كما قد تعلو سقفه القباب. ويقوم بيت الصلاة عادة على أعمدة ترتكز عليها العقود وفوقها السقف. وبواسطة صفوف الأعمدة ينقسم بيت الصلاة إلى أروقة رأسية تبدأ من المدخل الرئيسي وتنتهي بجدار القبلة، واخرى عرضية موازية لجدار القبلة. أمّا المساحة المحصورة بين أربعة أعمدة فتسمى بلاطة. وعادة يكون الرواق الأوسط المؤدي إلى المحراب أوسع من سائر الأروقة.

٣ ـ المحراب: المحراب من أهم اقسام المسجد، وهو الحنية المجوفة في جدار المسجد لجهة القبلة. والقبلة هي الجهة أو الوجهة، وهي في المسجد محرابه أو جداره المتجه نحو مكة المكرّمة، والمسلمون ملزمون بالتوجّه إليها في صلاتهم. والإسلام هو الوحيد بين الأديان الذي فرض على أتباعه الاتجاه الى مكان معيّن، وهذا المكان هو الكعبة المعظمة في مكة المكرّمة. وليس ضروريًا أن يكون المحراب حنيّة، وانما يكفي تعيين موضعه في جدار

صدر المسجد، وفي بعض المساجد الأولى وُضعت علامة تشير إلى المكان الذي يقف فيه الإمام.

واضطربت الآراء فيما يتصل بأول محراب جُعل بالمسجد في الاسلام، والمرجّح أنّ أول من أدخل المحراب في المسجد هو عمر بن عبد العزيز، وذلك في أثناء ولايته على المدينة المنورة في أيام الوليد بن عبد الملك. كما يذهب بعضهم إلى أن عقبة بن نافع هو أول من أقام المحراب في مسجد القيروان، وبقي هذا المحراب موضع إجلال الناس. ونشير إلى أن نماذج المحاريب الأولى تشبه في شكلها المحارة المقلوبة.

وكانت بعض المحاريب تصنع من الخشب وتُنقل من مكان إلى آخر. وفي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة عدد من المحاريب الخشبية، منها محراب الجامع الأزهر الذي يرجع تاريخه إلى سنة ٥١٩هـ(١١٢٥م)، ومحراب السيدة نفيسة (٥٣٥هـ/١١٤٤م) ومحراب السيدة رقيّة (٥٥٥هـ/١١٦٠م). أما المحاريب الثابتة المصنوعة بالجص أو الحجر العادي أو الرخام فقد كانت معروفة منذ العصور الإسلامية الاولى.

وأمّا الغرض من المحراب في المسجد هو مساعدة المصلين على معرفة جهة القبلة. لذلك فان بعض المحاريب تكون عبارة عن إشارة في جدار القبلة يقف بإزائها إمام المصلين الذين يقفون وراءه عند إقامة الصلاة، وتكون الإشارة أحيانًا بلاطة مسطحة. على أن قيام عمر بن العزيز بتجويف محراب المسجد النبوي في المدينة حمل الذين جاءوا بعده على الاقتداء به.

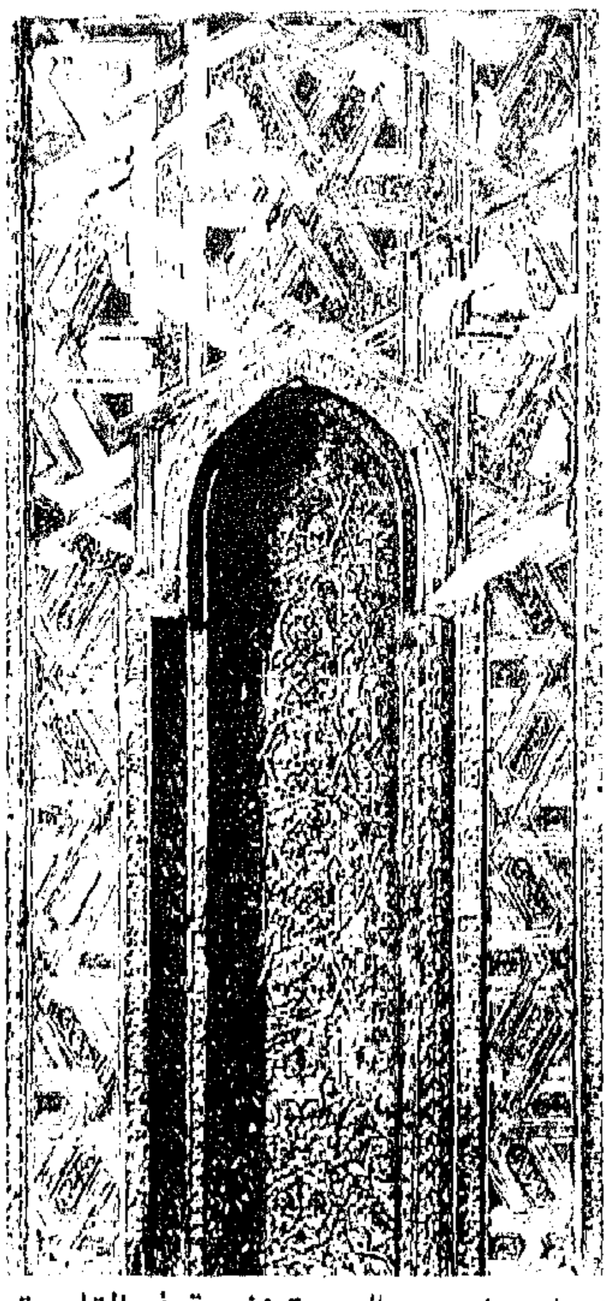

محراب ضريح السيدة نفيسة في القاهرة.

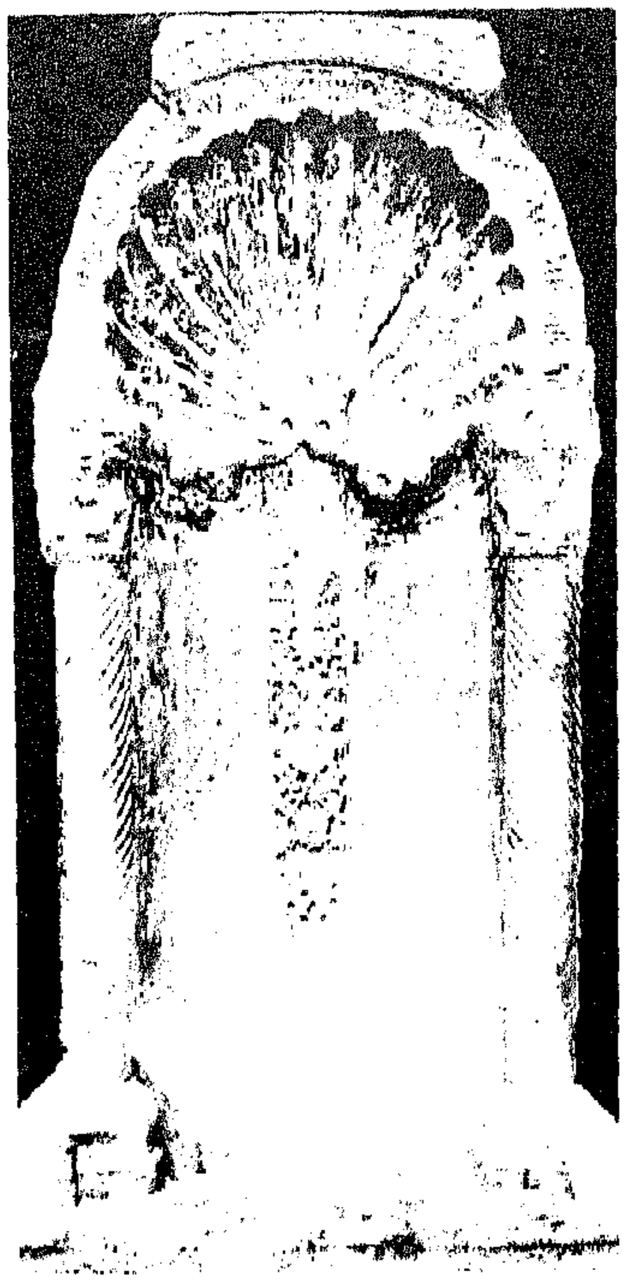

محراب مسجد المنصور في بغداد من القرن الثامن للميلاد.

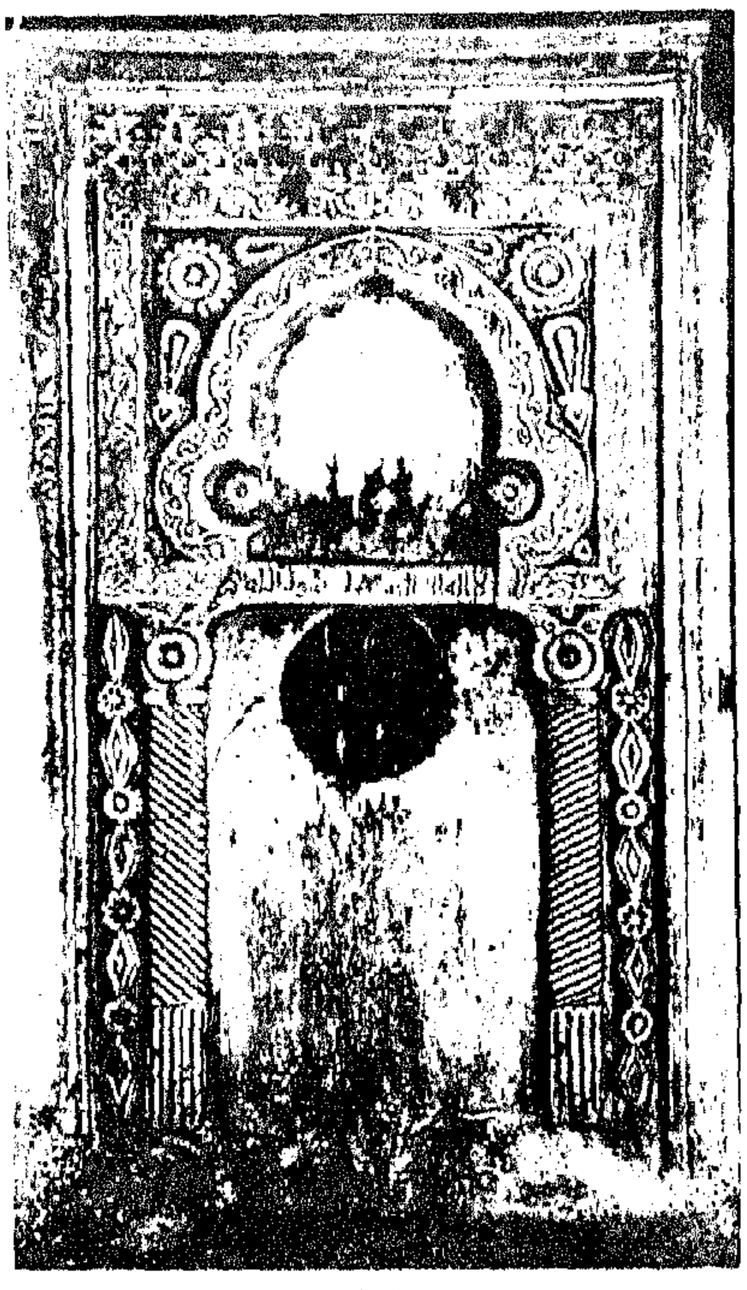

محراب قبة الصخرة.

محراب المسجد الجامع في القيروان.

محراب المسجد الجامع في سوسة.

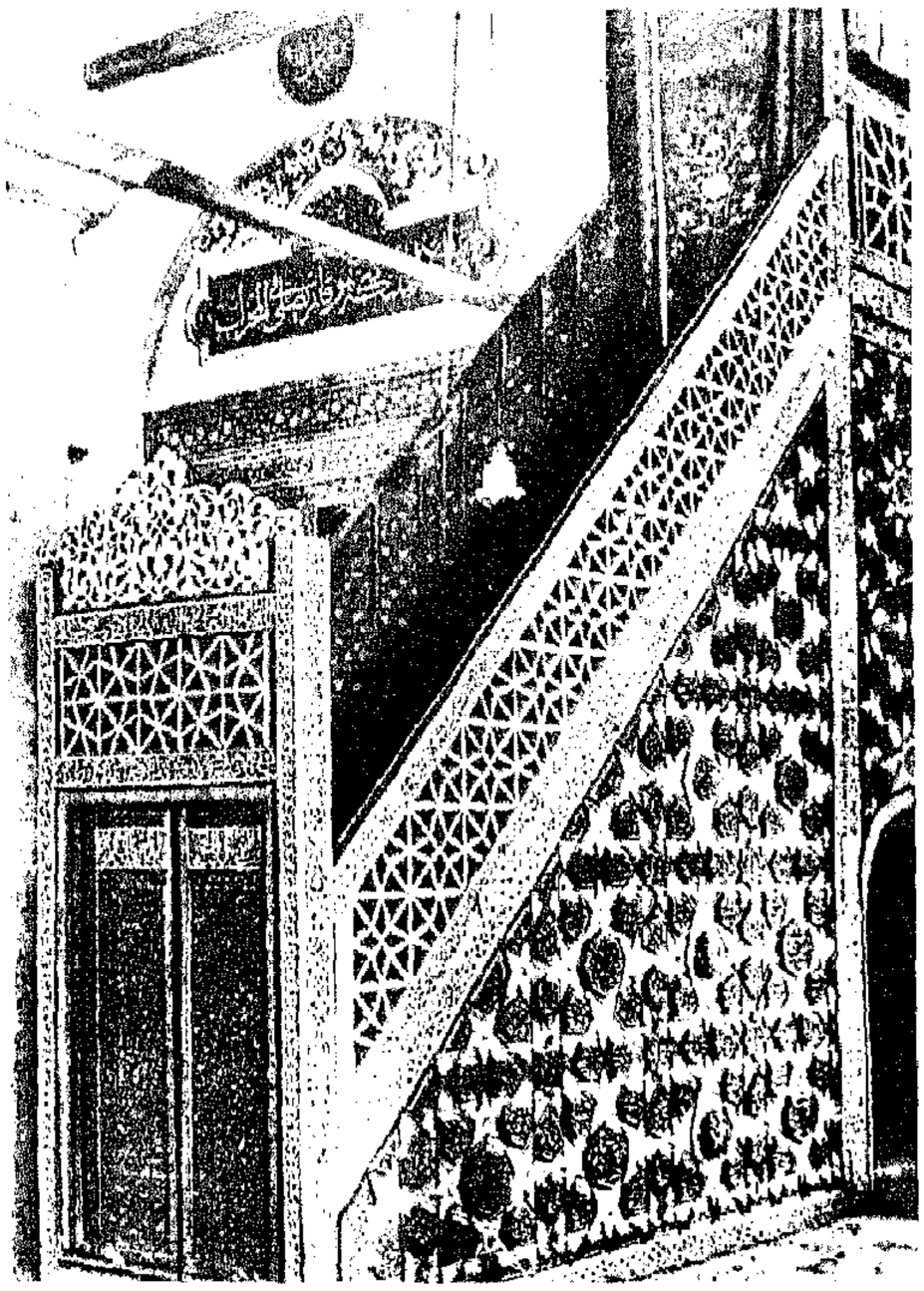

منبر المسجد الجامع في إزمير.

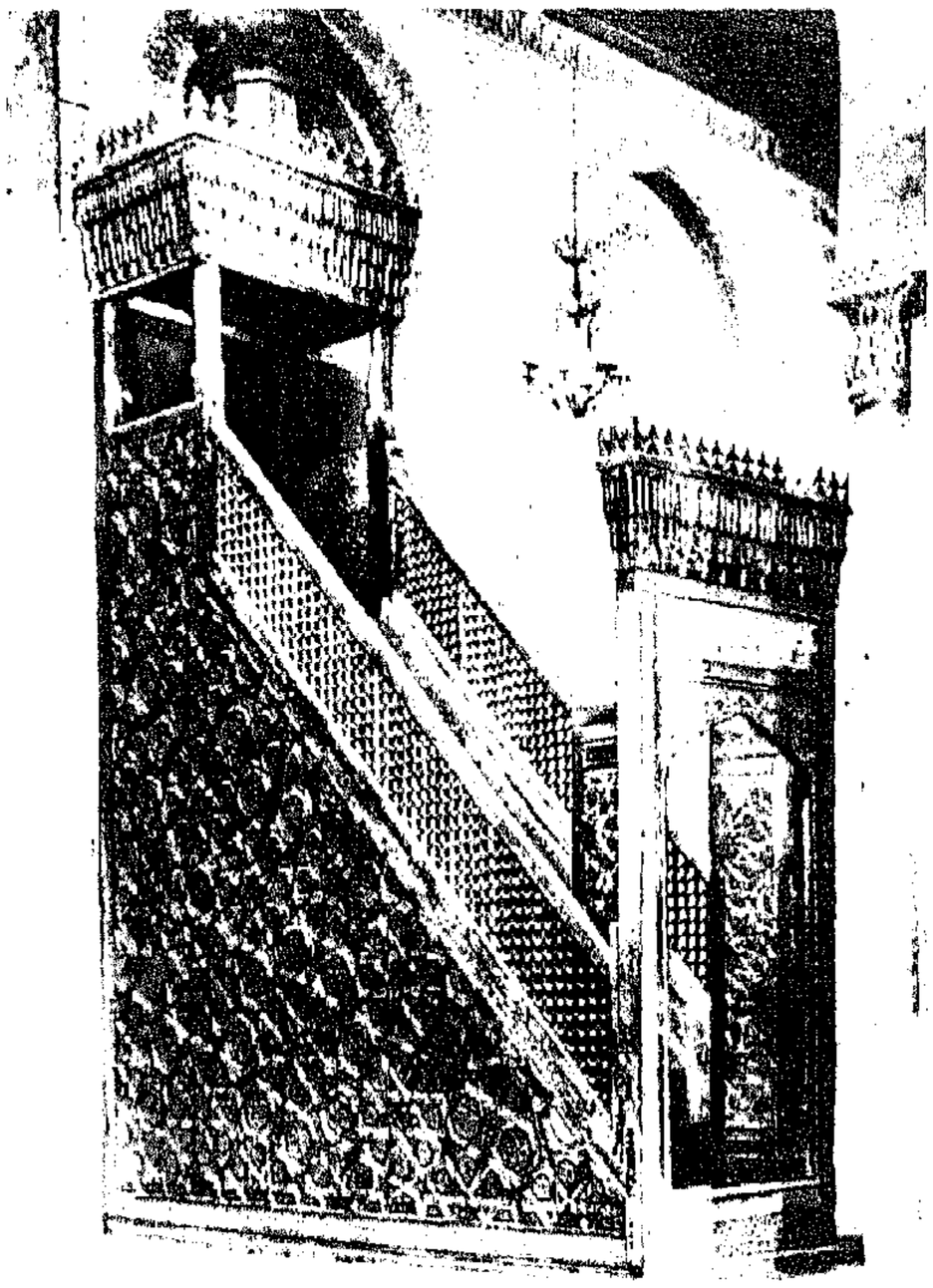

منبر مسجد ابن طولون.

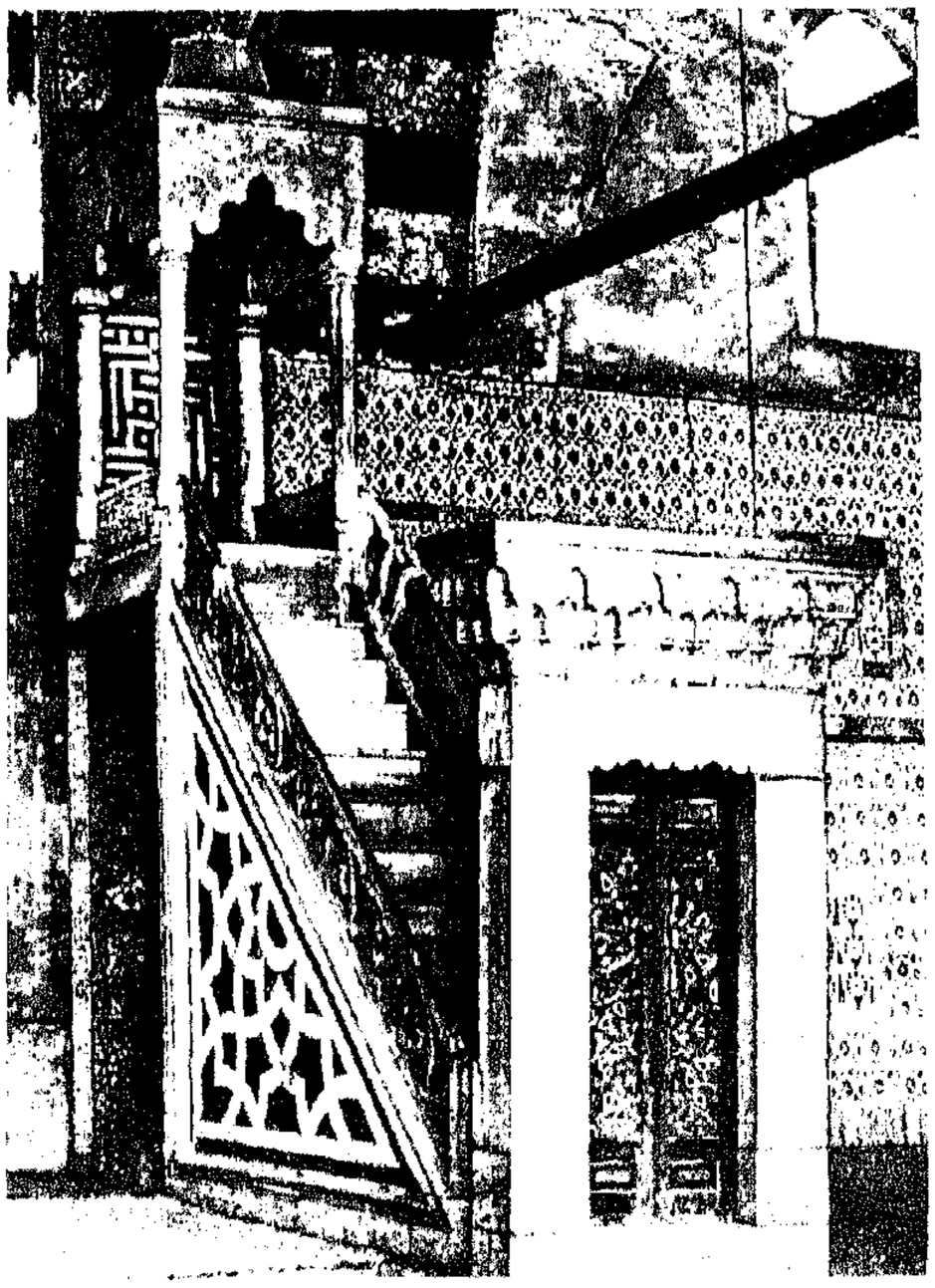

منبر المسجد الأزرق في القاهرة.

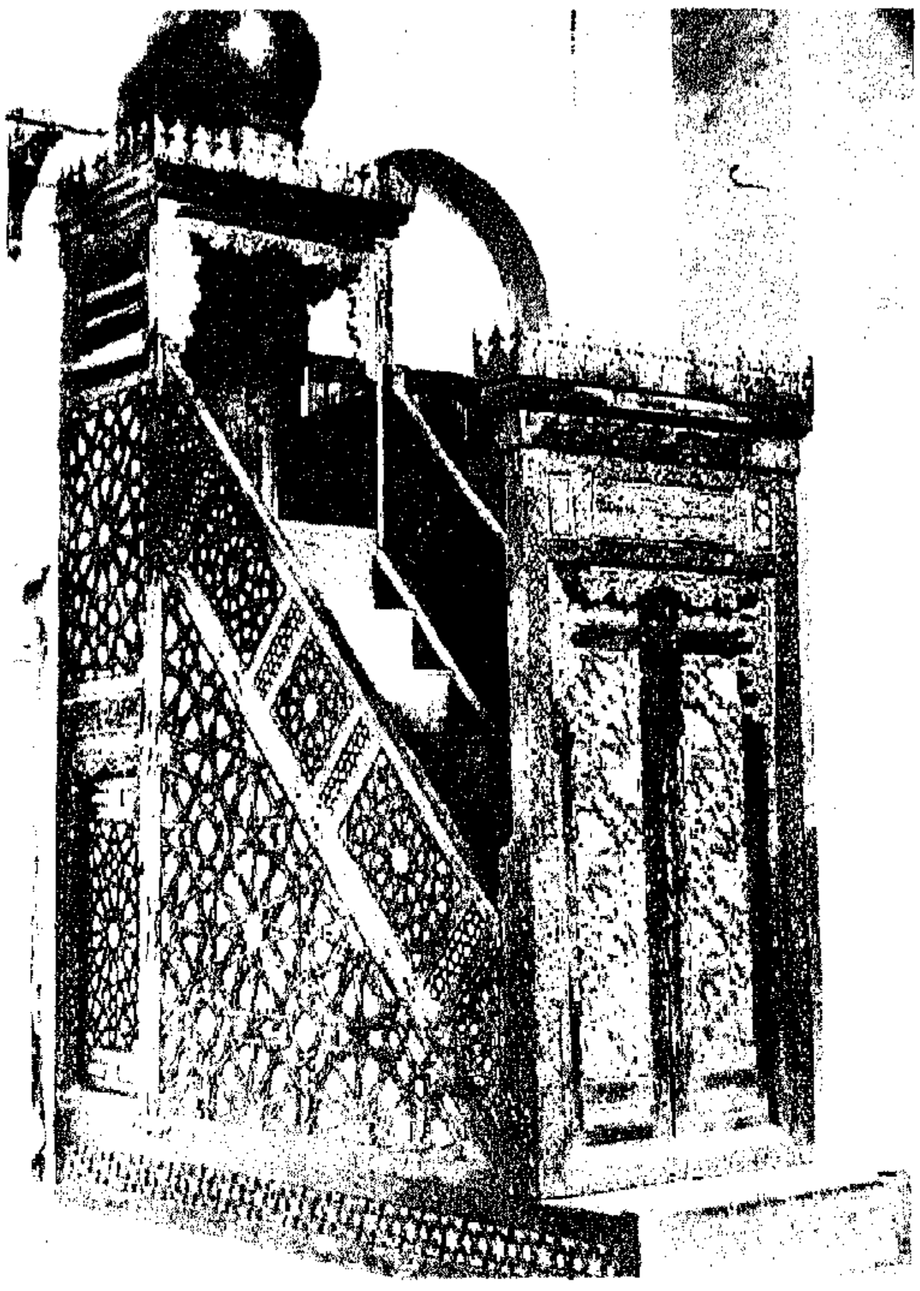

منبر مسجد مدرسة السلطان عبد الغني في القاهرة.

من المحاريب القديمة المشهورة في الإسلام المحراب الذي أقامه عمر بن عبد العزيز في المسجد النبوي الشريف. وهناك محراب عقبة بن نافع في مسجد القيروان ومحراب عمرو بن العاص في مصر، ومحراب المسجد الأقصى. وفي المسجد الجامع بقرطبة نجد الجزء الأعلى من المحراب قطعة واحدة من المرمر على شكل محارة، وقد تحقق هذا الشكل في زمن عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم.

٤ ـ المنبر: هو مرتفع مواجه للمصلّين يرتقيه الخطيب. ويخبرنا المؤرخون أنّ الرسول ﷺ كان يقف أول الأمر إلى جذع في المسجد ليلقي خطبته، فاقترح عليه أحد صحابته أن يكون في محل مرتفع كي يراه الناس، فاستجاب للطلب، فصنع له منبر من مرقاتين. ويذكر المؤرخون منبرًا آخر كان ينصب في المسجد النبوي الشريف بأمر من النبي ﷺ كي يقف عليه الشاعر حسّان بن ثابت عند إنشاد قصائده في مدح النبي ﷺ وهجاء خصومه. على أن هذا المنبر كان يُنصب بصورة مؤقتة ثم يرفع بعد انتهاء حسّان من إنشاد قصائده.

ولم يُعرف عن المسلمين في صدر الإسلام أنّهم اتخذوا المنابر في مساجدهم، وبقي الأمر كذلك في عهدَي النبوّة والخلفاء الراشدين. ويُعتقد أنّ والي مصر عمرو بن العاص كان أول من اتخذ المنبر في المسجد الذي شاده بالفسطاط. ويذكر المؤرخون أن المساجد التي أُنشئت في غير المدينة والفسطاط كانت خالية من المنابر وأنّ الخطباء كانوا يخطبون معتمدين على العصي.

ويذكر بعض المؤرخين أنّ معاوية بن أبي سفيان صنع منبرًا وضعه في مكّة المكرّمة عندما قدم إليها من الشام، وهو أول من خطب بمكة المكرمة على المنبر. ثم إنّ يزيد بن معاوية أنشأ في جند قنّسرين مسجدًا له منبر، وما لبثت المنابر أن شاعت.

ولما كان المنبر يشغل مساحة من المسجد، فإن بعضهم صنع المنابر النقالة، وجعلوا لها أمكنة خاصة تودع فيها بعد انتهاء الخطبة. ويُعتقد أن أوّل من لجأ إلى هذه الطريقة هم أبناء الأندلس وشمال افريقيا. ونذكر أخيرًا أنّ المنابر في المساجد لها أهمية دينية وسياسية، فضلاً عن قيمتها الفنيّة.

٥ ـ المئذنة: المئذنة أو المنارة أو الصومعة هي البناء المرتفع الذي يرتقيه المؤذّن في

أوقات محددة ليدعو إلى الصلاة. ولم تكن المئذنة معروفة في عهد النبي ﷺ ولا في زمن الخلفاء الراشدين، ومعاوية هو أول من أشار ببناء المآذن في الإسلام. ويستنتج المؤرخون أنّ هذا الخليفة تأثر بما وجده في كنائس دمشق من أبراج الأجراس فوجد فيها مثالاً صالحًا لرفع الأذان في المساجد بدل الوقوف على سطح المسجد.

وبعد أنْ أصبحت المئذنة جزءًا متممًا للمسجد أخذ الحكام يتنافسون في العناية بها والتفنّن ببنائها في أشكال هندسية متنوعة مع تزيينها بأجمل الزخارف والنقوش. وبعد أن أخذ المسلمون فكرة المئذنة عن ابراج الكنائس، أصبحت المآذن بدورها مصدرًا استوحى منه الاوروبيون طريقة بناء أبراج كنائسهم.

وتختلف أشكال المآذن باختلاف الأمم التي شادتها. فالمربعة بنيت في مساجد العهود الإسلامية الأولى أيام بني أميّة، وقد غدت ذات طبقات يصغر حجمها مع الارتفاع في الاندلس والمغرب. وانتشرت المئذنة المضلّعة في المساجد الفاطمية، والاسطوانية الشبيهة بقلم الرصاص المسنون في المساجد العثمانية.

وبعد أن كان للمسجد مئذنة واحدة، عمد بعض الحكام الى بناء مئذنتين للمسجد الواحد، ثم عدة مآذن. كما هي الحال في المساجد العثمانية، وأصبح تعدد المآذن للمسجد الواحد أمرًا مألوفًا. وقد ازداد الاهتمام بالمآذن من حيث تزيينها وزخرفتها، حتى أنّ مآذن «العتبات المقدسة» في العراق كسيت بسبائك الذهب.

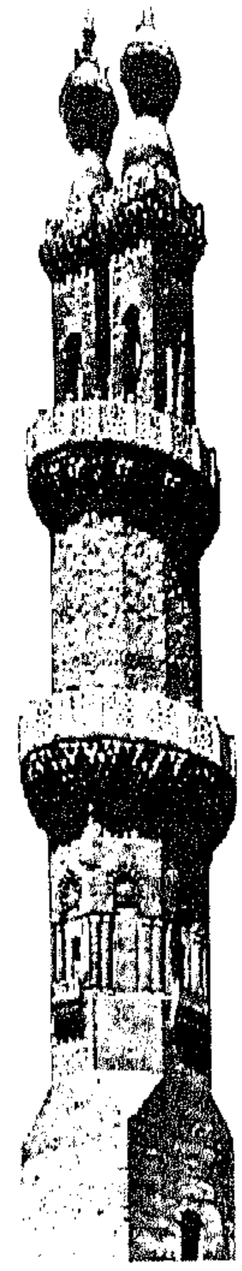

مئذنة جامع الأزهر.

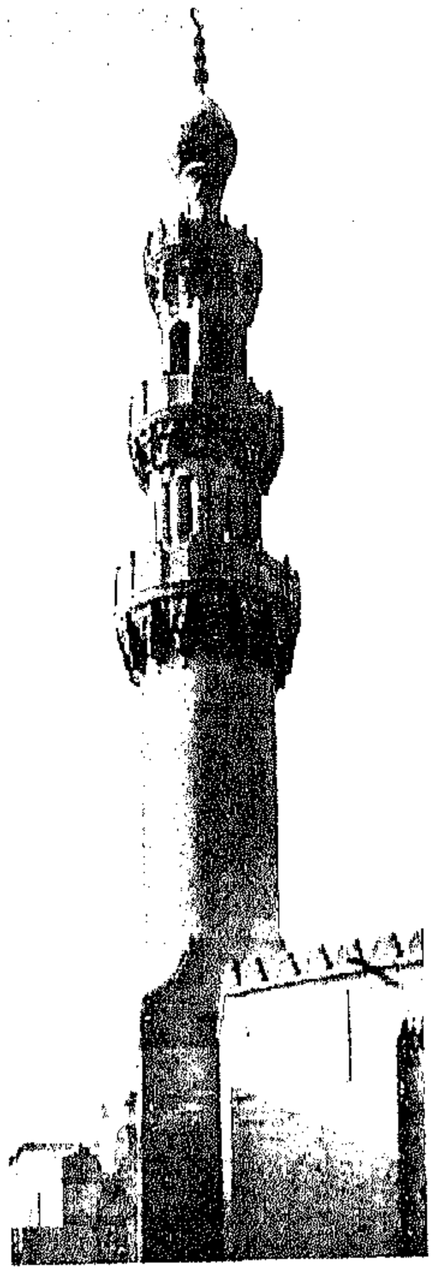

مئذنة الجامع الأزرق في القاهرة.

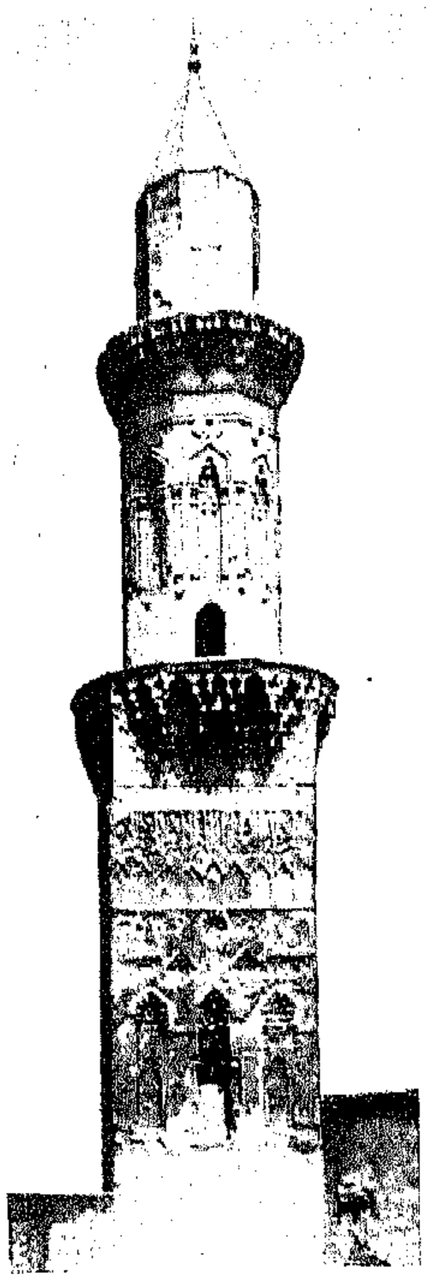

مئذنة مدرسة السلطان قلاوون.

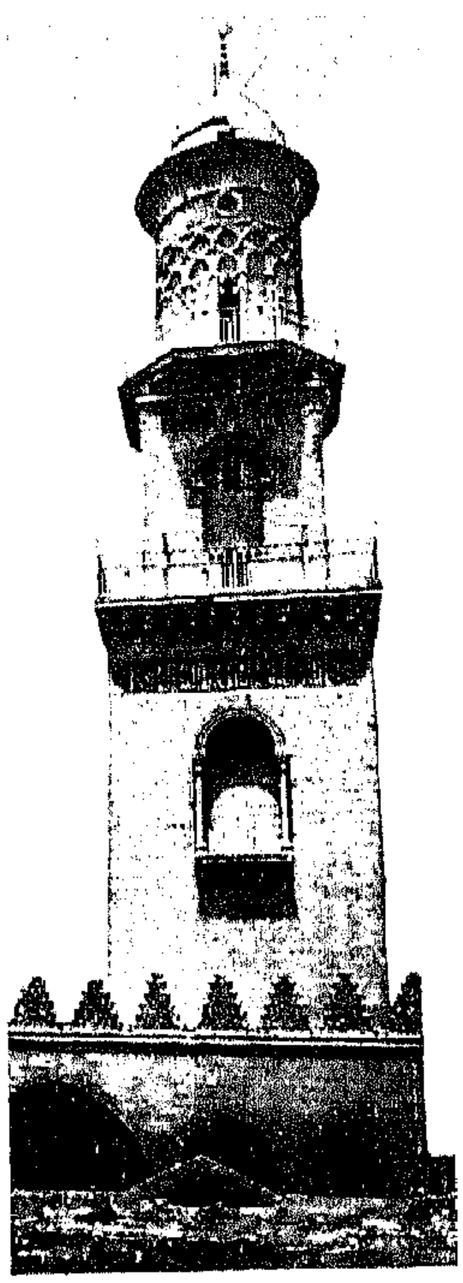

مئذنة ضريح السلطان قلاوون في القاهرة.

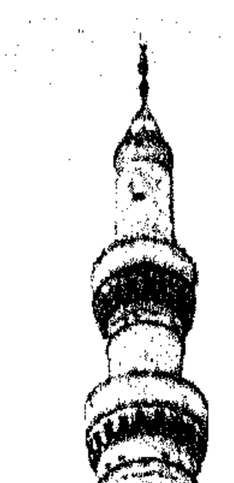

مئذنة مسجد النبي شيت في الموصل.

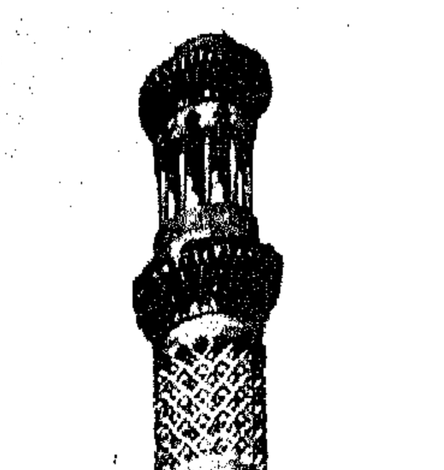

مئذنة ضريح الأمير قرقماز في القاهرة.

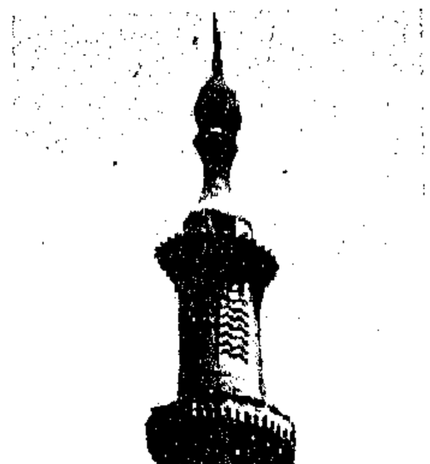

مئذنة ضريح السلطان عينال في القاهرة.

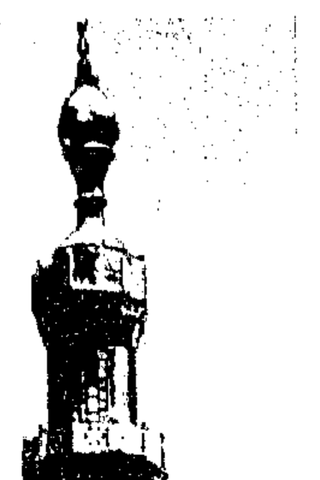

مئذنة ضريح السلطان قايتباي في القاهرة.

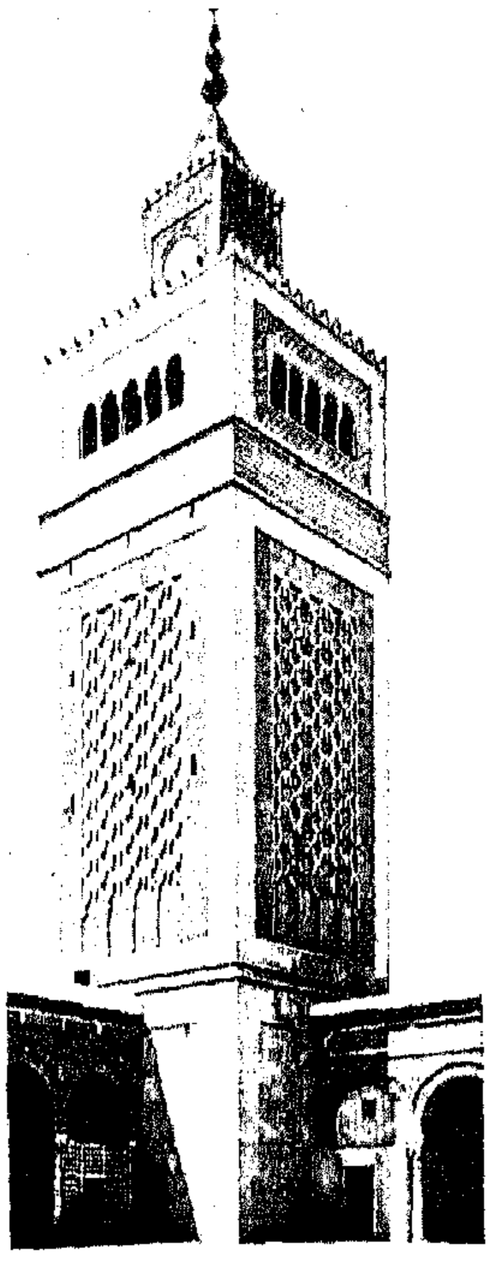

مئذنة جامع الزيتونة في تونس.

مئذنة المسجد الجامع في الرباط.

مئذنة جامع الكتبية في مراكش.

مئذنة جامع المنصورة في تلمسان.

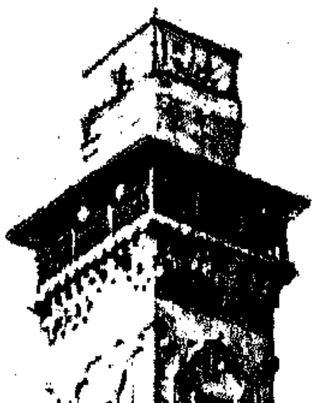

مئذنة مسجد زكريا في حلب.

مئذنة لاجيرالدا في اشبيلية.

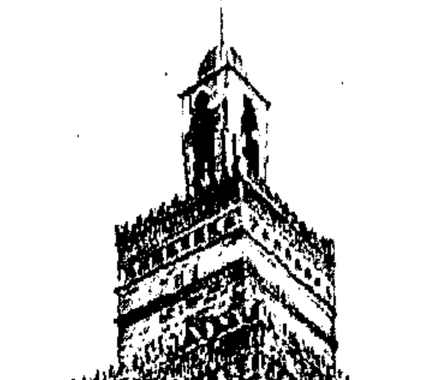

مئذنة المسجد الجامع في صفاقس.

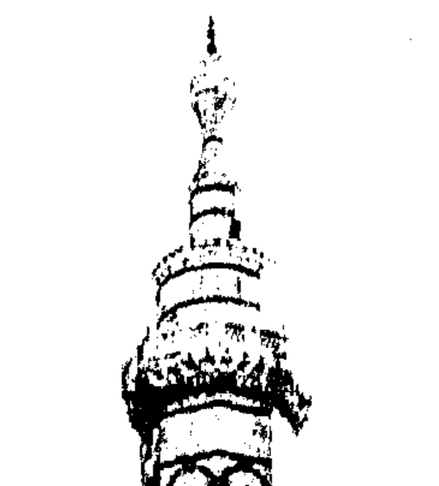

مئذنة الجامع الأموي في دمشق.

وهناك عدد من المآذن كانت محل اهتمام الدارسين نظرًا إلى ما تمتاز به من قيمة أثرية ولما لها من خصائص فنيّة. ومن المآذن المشهورة مئذنة سيدي عقبة في القيروان، ومنارة المنصور في اشبيلية (لا خيرالدا)، ومنارة الكُتُبِيَّة بمراكش، وصومعة حسّان بالرباط، والمئذنة الملوية في سامراء.

٦ ـ القبّة: هي من الأجزاء المكمّلة للمسجد، وبناؤها محدودب على شكل نصف كرة، وقد تتخذ القبة الشكل البيضوي أو المخروطي أو الحلزوني أو البصلي. وهي من الملامح التي تمتاز بها أغلب المعابد الدينية، وهي من الأشكال الدخيلة على المساجد. وأول قبّة بنيت في الإسلام هي قبّة مسجد الصخرة المشرفة في بيت المقدس، وقد شيّدها عبد الملك بن مروان سنة (٦٢هـ/٦٩١م). وفكرة هذه القبّة مأخوذة عن الكنائس النصرانية التي كانت معروفة في الشام. ثم حذا المسلمون في الأمصار حذو الخليفة الأموي وشرعوا في اتخاذ القباب المتنوعة لمساجدهم.

وأغلب المساجد تتعدد فيها القباب، تبعًا لاتساع بنائها، وقد جرت العادة أن يرفعوا قبة فوق المحراب، وكذلك فوق المنبر لتظلل مكان قعود الإمام. كما جرت العادة أن تُبنى القباب فوق أحواض الوضوء لوقاية المتوضئين من حرّ الشمس أو المطر. ولم يقتصر بناء القباب على الجوامع وحدها وإنَّما بُنيت كذلك فوق مقامات الأولياء، وغالبًا ما يعلو الهلال القبّة، كما قد يعلو المئذنة.

٧ ـ المقصورة: هي حجرة تبنى في صدر المسجد، على يمين القبلة أو يسارها، ولم تكن معروفة في أوائل عهد المسلمين. ويرى بعض المؤرخين أنَّ أول من اتخذ المقصورة لصلاته هو الخليفة عثمان بن عفان، ويرى بعضهم الآخر أن المقاصير عُرفت في أيام معاوية بن أبي سفيان. والمعروف أن المقصورة أُعدَّت في الأساس لكي يصلي فيها الخليفة أو الحاكم. وفيما بعد بادر الولاة في الأمصار إلى بناء المقاصير في المساجد: إلاّ أن قسمًا كبيرًا من المساجد خلا منها.

٨ ـ السُدَّة: هي السقيفة التي تبنى في حائط المسجد قبالة المحراب والمنبر، وتكون عادة من الخشب وتُرفع فوق أرض المسجد على أعمدة عالية ثابتة. ولم يُعرف أنَّ أحدًا بنى سدّة نقّالة على نحو ما عهد عن بعض المنابر والمحاريب. والغرض من بناء السدّة على

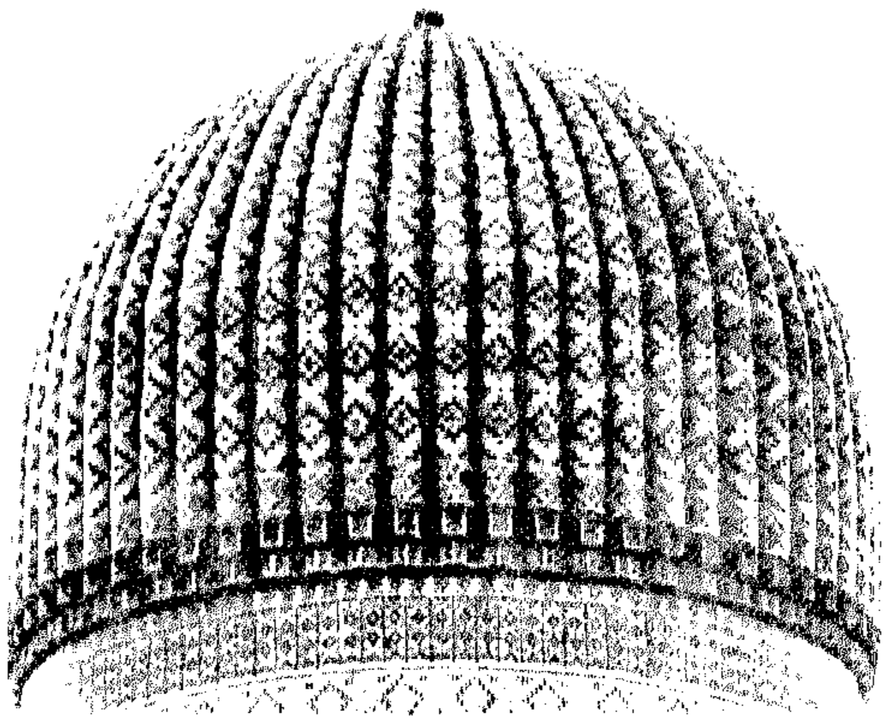

قبة ضريح تيمور في سمرقند.

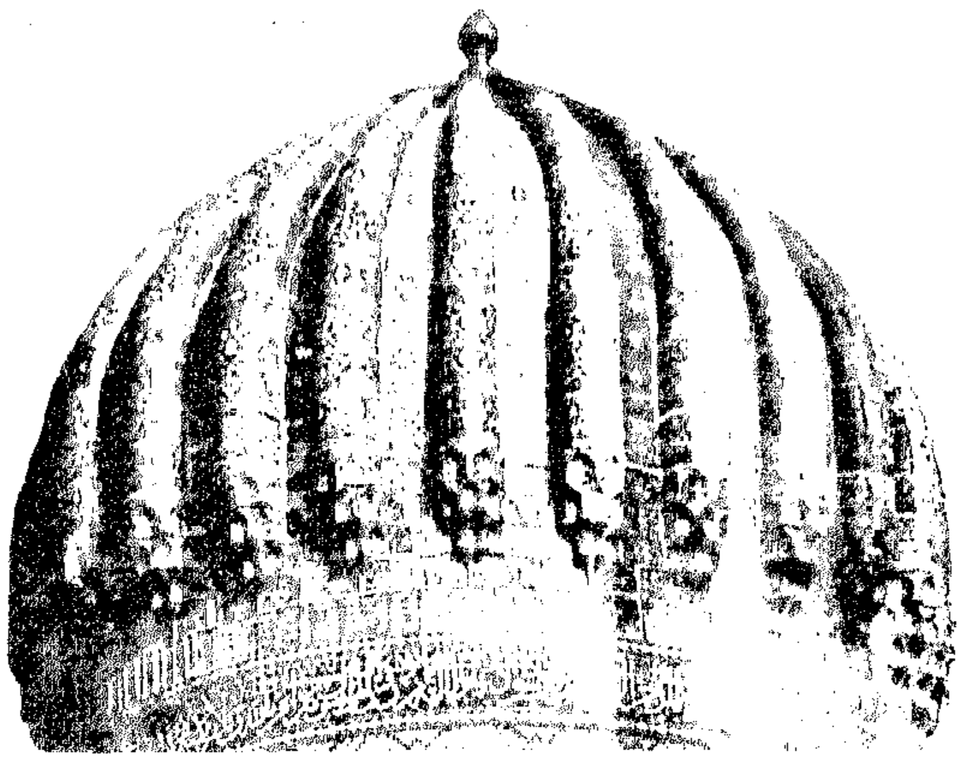

قبة مدرسة « شيردور » في سمرقند.

قبة مسجد الشاه في اصفهان.

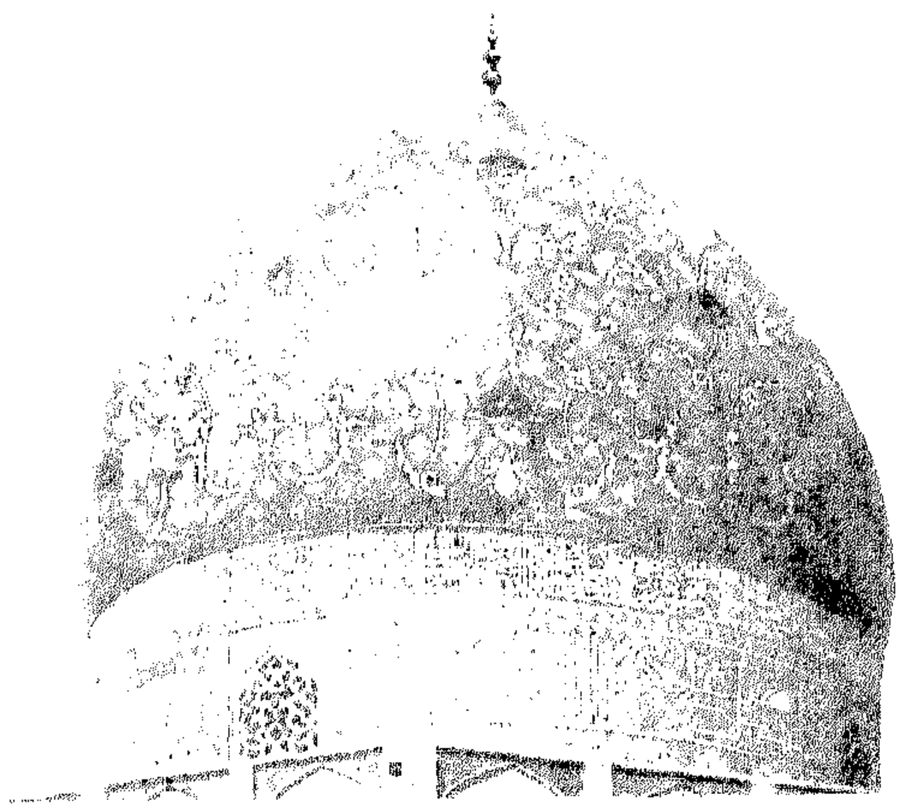

قبة مدرسة والدة الشاه في اصفهان.

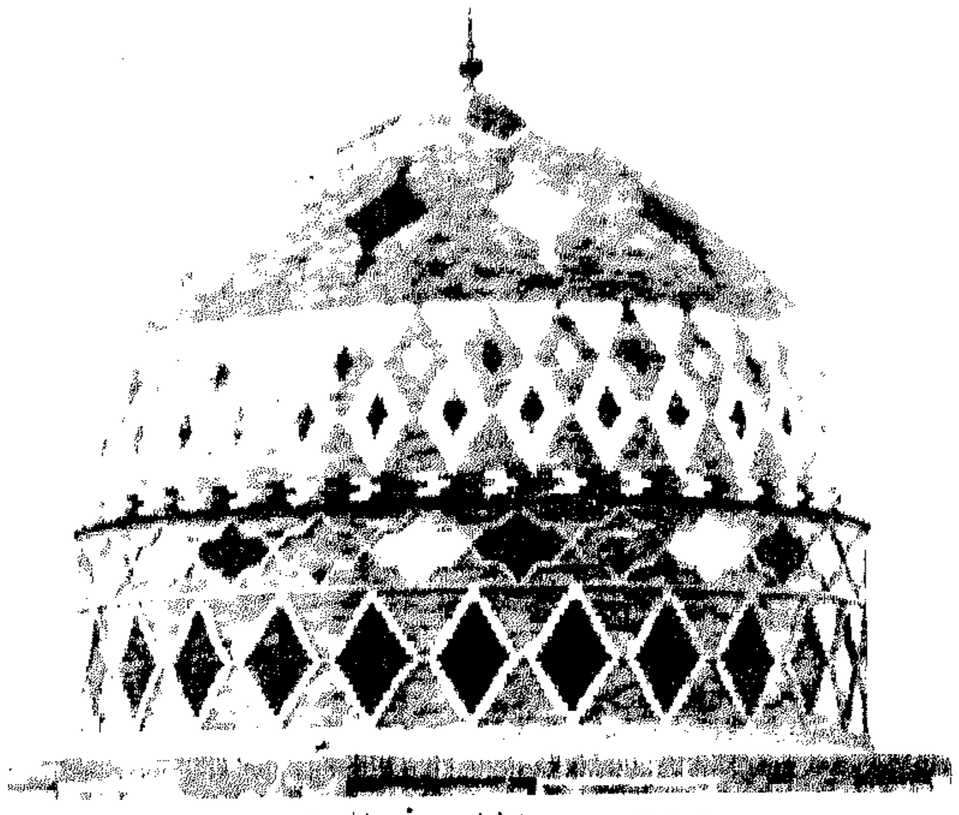

قبة المسجد الجامع في نايين.

قبة ضريح الشاه أردبيل.

قبة ضريح بيبرس في القاهرة.

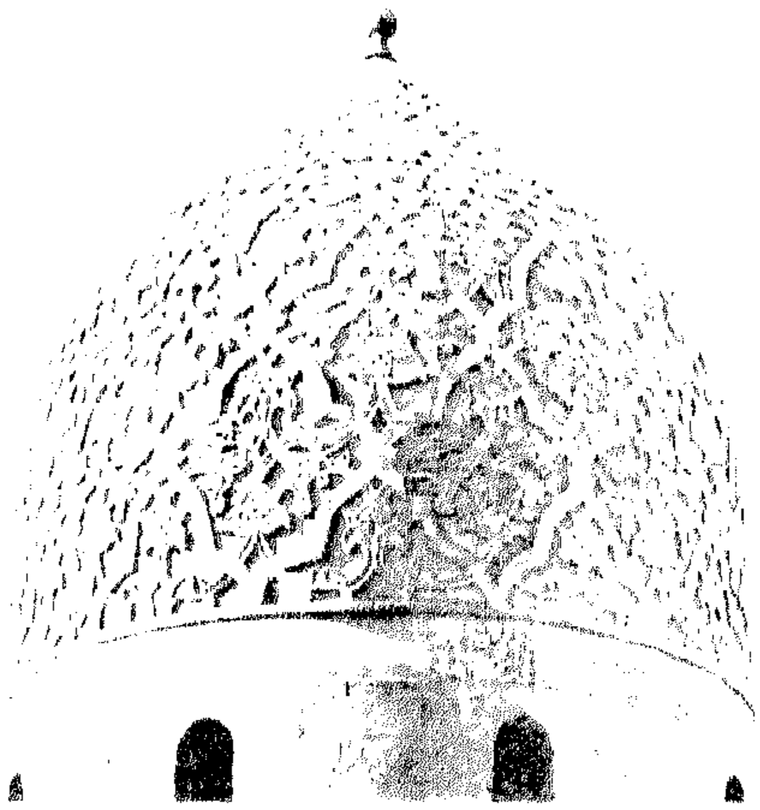

قبة مدفن الخلفاء في القاهرة.

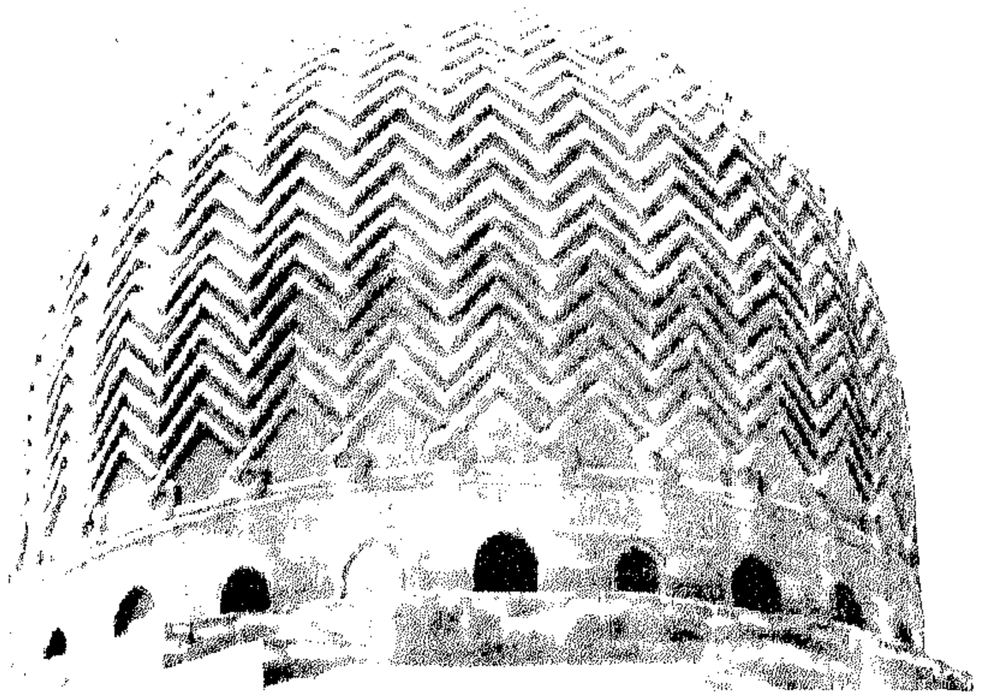

قبة ضريح برقوق في القاهرة.

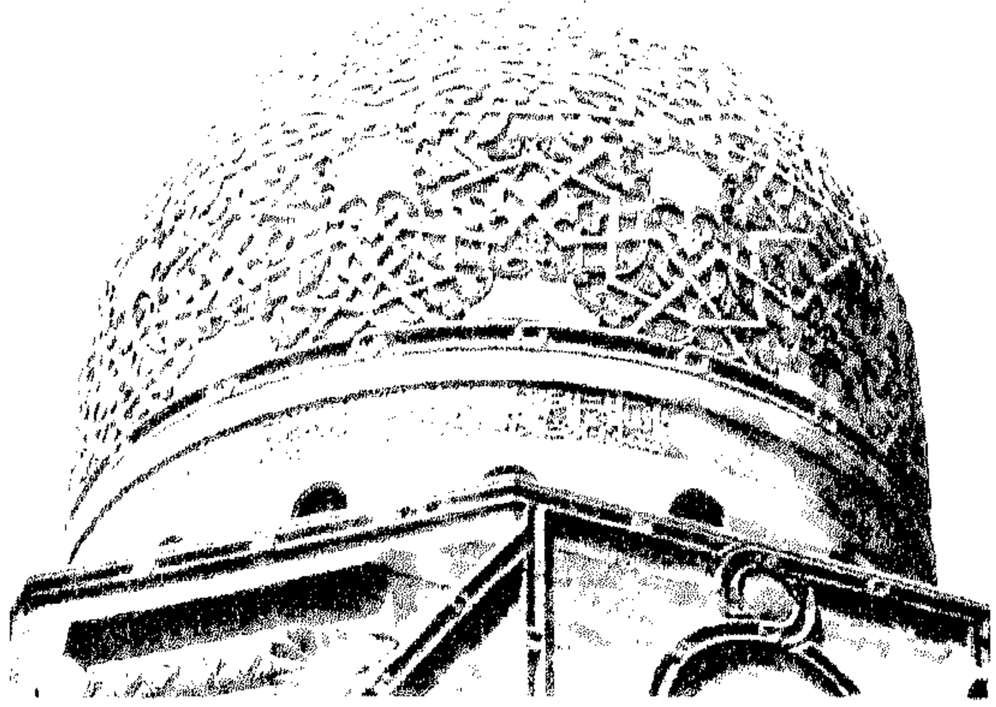

قبة ضريح قايتباي في القاهرة.

قبة ضريح خيربك في القاهرة.

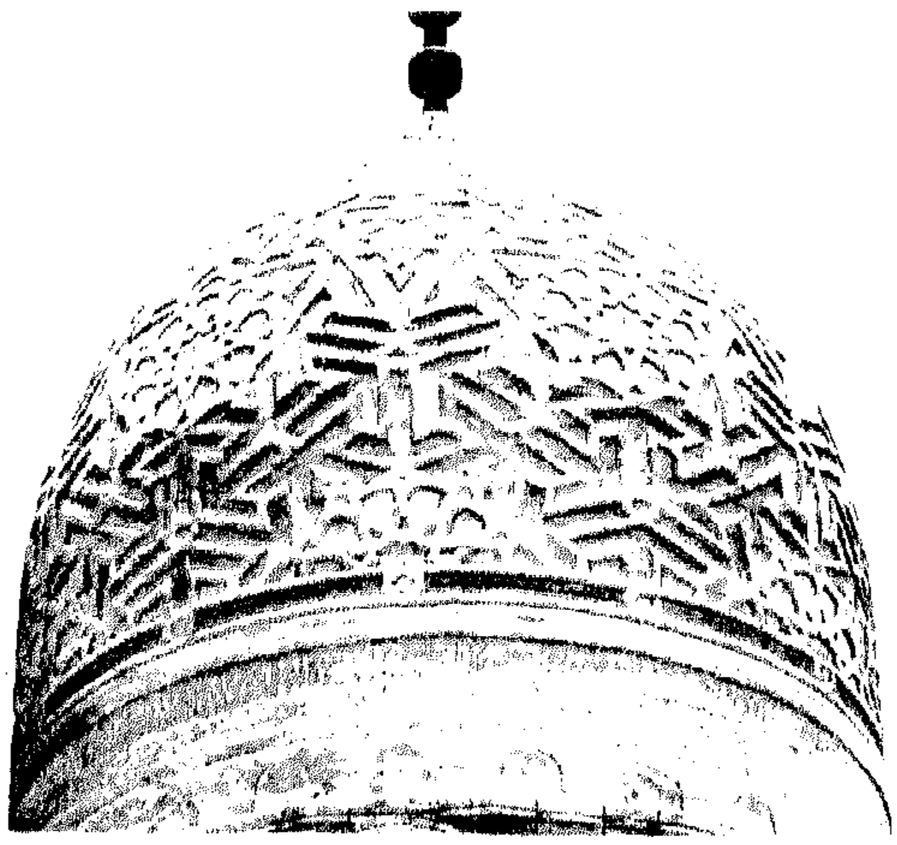

قبة ضريح قانصوه أبو سعيد في القاهرة.